السيكوبوليطيقا
كعلم نفس حضارى مقارن
وسط منظومة العلوم السلوكية

أ.د. / كمال دسوقى

مثلما حاول أوجيست كونت ومن بعده إميل ديركايم أن يجعلا من علم الإجتماع الوضعى- الذى بشر به الأول وأرسى قواعده وميادين البحث فيه ديركايم وتلاميذه أعلام المدرسة الإجتماعية الفرنسية .. دراسة للعقل الجمعى ممثلاً فى التطور التاريخى والحضارى للمجتمعات ، يعارضهما جوستاف لوبون فى "روح الجماعات" وتارد بنظرية المحاكاة فى كتابيه "المنطق الإجتماعى" و"قوانين المجتمع"- أى الإجتماع النفسى المؤدى إلى تبلور علم النفس الإجتماعى فدينامية الجماعات- مما أسميناه سسلجة علم النفس فسكلجة الإجتماع كرد فعل مباشر ورد فعل مضاد لوضعية كونت[1].. تطورت الأنثروبولوجيا الإجتماعية التى كان قد عرفها السير إيفانز برتشرد بأنها أحد فروع الأنثروبولوجيا العامة الذى يهتم بالثقافات والمجتمعات الإنسانية فى علاقتها بالفروع الأخرى الطبيعية والاتنولوجية والبشرية (جغرافية وتاريخاً قديماً وأثريات ولغويات..)[4] لتصبح أنثروبولوجيا ثقافية تختص بدراسة السلوك الإجتماعى الذى يتخذ عادة شكل نظم إجتماعية كالعائلة ، والنسق القرابى ، والتنظيم السياسى ، والممارسات القانونية ، والطقوس الدينية .. فى كل المجتمعات الإنسانية- لا لمجرد البدائى منها فحسب ؛ بل الذى يتخلى أكثر فأكثر عن وصف هذه المجتمعات بالبدائية أو غير المتعلمة non-literate ويجعلها تقرب شيئاً فشيئاً من علم الإجتماع العام- على خلاف بين المدرسة البريطانية التى اهتمت بدراسة النظم الإجتماعية والبناء الإجتماعى ، والمدرسة الأمريكية التى اتجهت نحو دراسة الثقافة أى العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع[3]...

مثلما حدث هكذا فى القرن الماضى لعلمى النفس والإجتماع بوصفهما علمى دراسة الفرد والمجتمع لينتهى الأمر إلى دراسة التفاعل بين الفرد والجماعة تأثراً وتأثيراً فى شتى مجالات الحياة الإجتماعية ، وبنفس تحول الأنثروبولوجيا عن وصف الجماعات الموسومة بالبدائية أو غير المتعلمة إلى التعميم على المتمدينة والحديثة ؛

نشأت الدراسات عبر الحضارية أو الثقافية التى قوامها ملاحظة ثقافات متعددة من أجل تتبع أثر الظروف البيئية المشتركة أو الممارسات الإجتماعية المتماثلة- فى محاولة لاكتشاف الآثار الدينامية النوعية لتنبيه بيئى معين على السلوك الجماعى- خصوصاً وأحد تعريفات علم الإجتماع العام الأمريكى المعاصر أنه "علم دراسة السلوك الإجتماعى للإنسان الفرد فى علاقته بالآخرين بنائياً ، فى تفاعلاته بأدوار مكانته وظيفياً ، وفى تواصلاته برموز اللغة وأجهزة الاتصال للمسايرة فى القيم والامتثال للضوابط غالباً.."[٤] فالمنهج عبر الثقافى فى العلوم الإجتماعية يلاحظ أكثر من ثقافة ليقارن الأنماط السلوكية لإحدى الممارسات أو الطقوس (كتنشئة الطفل) فى مجتمع بدوى بأفريقيا أو صناعى بالولايات المتحدة ، بوذى فى سيلان أو مسلم بأفغانستان .. دون محاولة منه لمقارنة مختلف هذه الثقافات ككل ، بل هو يعتبرها ضرباً من التنوع التجريبى لظروف دراسة ظاهرة التنشئة[٥].. على العكس من السيكوأنثروبولوجيا (أو الأنثروبولوجيا النفسية) التى هى فرع الأنثروبولوجيا الذى يتناول سيكولوجية مختلف الثقافات- حضارات ومدنيات- فيدرس خصوصاً الفولكلور والأساطير وغير ذلك من فنون التعبير عن عقلية الجماعات- والمقارنة هنا إنما هدفها أن تلقى البحوث النفسية الضوء على المعلومات المتجمعة عن سلوك الأطفال أو المرضى العقليين .. من الناس فى ثقافتنا الحاضرة بما يشبه دراسة الأثنولوجيا للثقافة كعرف وعلاقات اجتماعية للشعوب والسلالات من حيث جغرافيتها وتاريخها وأصل نشأتها وتطورها ومن خلال ترسخ عاداتها وتقاليدها وتفحص لغاتها وآدابها وفنونها الشعبية..

وإذ صح تعميم إستخدام "أنثروبولوجيا" بدل "سوسيولوجيا" فى دراسة كل ما هو مجتمع: ريفى أو حضرى أو بدوى ، ساحلى أو جبلى أو قبلى ،، من العامى البدائى لسكان جزر اندامان وجماعات الآميش .. حتى المدنى الحديث لأحد أحياء نيويورك .. فى اعتبار جتلر (١٩٥٢)[٦] أن محورى العلاقات الإجتماعية مترادفان كطرفى متصل ، ورسم لوميس[٧] لاقتباس ريمر فكرة ليفين عن لب الشخصية الريفية والحضرية أقرب إلى المحيط منه إلى المركز فى الأولى عنه فى الثانية بعدة حلقات كل دائرة .. فقد شاعت تسمية فروع علم الإجتماع التى يراد الاستفادة بحقائقها النظرية التى تفسر حالتى الثبات والتغير (الاستاتيكا والديناميكا) فى اتساق العناصر والمتغيرات

الـــتى تتكون منها الظواهر موضوع العلم .. بأسماء "الأنثروبولوجيا الإقتصادية" التى تعـــنى بدراسة مكونات النسق الإقتصادى للمجتمع (كالملكية وتقسيم العمل والتبادل ، ونظـــم المقايضـــة والنقود والهدايا والحيازة..) ، والأنثروبولوجيا السياسية التى هى دراسة نظام الحكم الذى قوامه القانون والعرف والسلطة والضوابط الجزائية والزعامة والإدارة (أهـــلية أو حكومية) وسلطات الدولة تشريعية وتنفيذية وقضائية .. إلى غير ذلك مما أدرجناه فى قوائم مصطلحات الإجتماع والأنثروبولوجيا بلجنة العلوم الفلسفية والإجتماعية بمجمع اللغة العربية تحت اسم "الأنثروبولوجيا التطبيقية" التى تسعى إلى توظيف المعرفة الأنثربولوجية فى تطوير نظم الحياة الإنسانية والنهوض بها وترقيتها فى تـــنظيمات المجـــتمع المختلفة ويستعان بها فى مواجهة مشكلات مجتمعية معينة- باعتبار أن علم الإنسان الأول (الأنثروبولوجيا) قد نشأ بطبيعته مؤهلاً للتطبيق فى شتى مجالات المجتمع البدائى الإقتصادية والسياسية والتربوية والإدارية .. لمواجهة مشاكل الاســـتقرار والـــتوطين وتكوين الأسرات داخل العشائر فى نظام القبيلة وحكم الشيوخ والقضاء الأهلى ونظام العبادة الدينى والاعتقادى.

فـــلعله ليـــس مـــن قبيل الصدف بقدر ما هو الاستغراق فى تطبيقات العلوم الإجتماعية بأغنى بلاد القارة الإفريقية بالسلالات والأعراق (السودان) .. أن استخدمت لفظ سيكوأنثروبولوجيا ، وأنثروبولوجيا سياســـية ؛ وصراعات ثقافية ، وقياس الإتجاه النفســـى الاجتماعى للإستقرار .. فى عناوين بحوث لى بشرق وغرب السودان. ففى منتصف الستينات قدت فريق بحث من طلاب قسم الدراسات الإجتماعية جامعة القاهرة فرع الخرطوم بطلب من مؤسسة التنمية الصناعية التى كانت تنشئ مصنع ألبان بقبائل البقارة العرب بغرب السودان "لقياس الإتجاه النفسى الاجتماعى" بتطبيق استمارة بحث على عينة تمثل عشرة عموديات فرعى القبيلة ، وكان عنوان التقرير عن البحث "مدى اســـتعداد المسيرية الحمر للاستقرار" ، وعلقت نشر نتائجه والتوصيات بشأن التغلب عـــلى الصـــعوبات إلى أن تـــم تشـــغيل المصنع فعلاً وحالت الصعوبات التى أوصيت بضـــرورة التغلب عليها (فلم يكن ذلك ممكناً) دون استمرار المصنع فى الإنتاج إلا فى موســـم المطـــر حيث يقيم البقارة فى منطقة تصنيع الألبان ثلاثة أشهر (الخريف) ثم يرحلون إلى مجارى الأنهار جنوبا فى أعالى النيل[٨].

ولمـا كان من بين أسباب فشل المشروع دوافع سياسية لإقامة المصنع فى مـنطقة ليسـت رعوية إلا لبضعة أشهر ، فالتنمية الصناعية فيها موسمية فى أحسن الظروف ، ولم أكن مؤمناً بتحويل المجتمع الرعوى مباشرة إلى مجتمع صناعى ، فقد خطـر لى أن أدرس مجتمعاً يجمع بين الزراعة والرعى ففيه قرى يستقر بها الزراع والتجار والموظفون ورجال الصحة والتعليم للخدمات الثابتة .. بينما الارتحال بالماشية وراء الكـلأ قاصر على الشباب فى مطلع حياتهم .. ودرست فى شرق السودان على حـدود الحبشـة "مجـتمع الـرعاة فى رفاعـة شـرق" بعـنوان ثـانوى: تحـليل سيكوأنثروبولوجى لظاهرة البداوة". وفيه قدمت للبحث بعرض لديار القبيلة وأهميتها الـتاريخية وموقعها الجغرافى وتقسيماتها الإدارية الحديثة وعدد السكان ذكوراً وإناثاً بسـبع عمودياتهـا فى آخر تعداد سكانى ، وانتقلت لظاهر تزايد الاستقرار فى القرى لـلزراعة والتجارة بالمحاصيل والماشية والأخشاب والصمغ وحرف النجارة والحدادة وسـلال سعف النخيل وصيد سمك النهر ودجاج الوادى .. بالنقل على الجمال أو فى دكـاكين خشـبية يتنقلون بها لبيع السكر والشاى والملح .. مع وجود مدارس أولية ووسـطى ومستشـفى وشفخانة بيطرية .. حيث يطغى الإقتصاد النقدى على ضخامة قطعـان الماشية وتنتج الأسرة ما يكفى حاجتها من المواد الغذائية وتسكن إلى الراحة باقتـناء وسـائل المعيشـة كالمـروحة أو الثلاجة وموقد الغاز ومصابيح البترول .. وعمومـاً فبـتغير البيـئة من الرعوية المرتحلة بالبادية إلى الإقامة بالريف للزراعة وتـربية الحيـوان والطيـور .. تتغير اتجاهات الأفراد والجماعات إلى إيثار التوطن والاستقرار- فيما عدا الشباب منذ الصبا الذى عليه أن يرعى قطيع أسرته لتتكون له من أجر عمله ثروته الشخصية من الماشية التى منها يتزوج ويستقر حيث يحل محله أخ له أو أجيـر .. والبحث يستطرد إلى أحاديث هؤلاء الرعاة المسجلة لهم عن الحب والـزواج: لوعته وتكاليفه وتقاليده وما يتغنى فى انتظاره والحنين إليه بعض الرعاة من أشعار مشبوبة وعواطف جياشة(٩).

أمـا الـبحث بالإنجليزية الذى عنوانه "الصراعات الثقافية لدى أهالى النوبا" وتحـت هـذا عنوان ثانوى: بحث فى الأنثروبولوجيا السياسية للسودان الأوسط" فهو دراسة تتبعية لدراسة الأنثروبولوجى نادل لقبائل جبال النوبا هذه بكردفان سنة ١٩٤٠

قبل استقلال السودان ١٩٥٦ مقارنة بما ترتب على الاستقلال من صراعات ثقافية ناتجة عن ثلاثة عشر عاملاً هى عنوان فقرات البحث- وهى: انكماش مساحة الإقليم عما كان عليه من قبل ، ٢-تجزئة مجتمع القبيلة العام ، ٣- فلا وحدة تربط فروع السلالة المنحدرة من ذات الأصل العرقى ، ٤- الأصول لم يعد ممكناً التعرف عليها ، ٥- والنوبا دائماً مستعبدون لم يحكموا ذاتياً قط ، ٦- بل هم شعب مسود وبلد مستغل ، ٧- العلاقات العنصرية فيما بينهم حادة ومتوترة ، ٨- تنمو بهم كراهية الغرباء ، ٩ - ويستولى عليهم الخوف من السلطة العامة ، ١٠- يسكنون أعالى الجبال طلباً للأمن والحماية وتحفزاً للدفاع ، ١١- رعويون ومزارعون تحت سقف واحد ، ١٢- ثنائية لغة التخاطب والمعتقدات الدينية فى علاقات داخل وخارج الجماعات ، ١٣- يؤلف بينهم مجرد تبادل المنافع. وخلاصة هذا البحث إشارة إلى الأهمية الاستراتيجية للإقليم وسط السودان كملجأ للفارين من الجنوب (نوير وشلوك ودنكا) نجاة بأنفسهم من الاضطرابات هناك وللعمل هنا لدى التجار الذين يفضلون أخلاقهم المسيحية على وثنية النوباويين أو إسلامهم- الأمر الذى يشجع على تسلل التبشير من الجنوب إلى مختلف مناطق هؤلاء فى تصادم عقائدى خطر ، ويقوى تطلع النوباويين لوطن مستقل فى محافظة الجبال (التى سبق أن طالبوا بها ونالوها فى فترة الحكم الثنائى) إن لم تكن لهم جنسية خاصة بهم متميزة عن الجنوب والشمال. ويذكر البحث يكون النوباويين جبليين شجعاناً ، الكثير منهم جنود شرطة وجيش سابقون ، وهم الآن يستخدمون فى أعمال وضيعة (كالنظافة المنزلية من الفضلات بسحب وتنظيف وإعادة دلاء القاذورات كل مساء) هى قاصرة عليهم بكل مدن السودان- مما قيل أنه انتقام من ثوراتهم المتكررة منذ المهدية ١٨٨٣ حتى الفكى على ١٩٣٠[١٠]. ويتنبأ البحث فى النهاية بأنه على ضوء عناصر الصراعات الثقافية المشار إليها ، وفى ظل الظروف الجغرافية والتاريخية والأمنية التى يمر بها السودان فى محاولات انفصال شماله عن جنوبه وشرقه عن غربه .. لابد أن توجه عناية تامة لحل هذه الصراعات على أساس من الدراسة العلمية الأنثروبولوجية التى نادى بها حاكم عام السودان السير هيوبرت هدلستون وأوردها فى دراسته للنوبا (١٩٤٧) الأنثروبولوجى نادل الذى استلهمنا بحثه المبكر للمتابعة والمقارنة[١١].

وحديثاً ، فإننى استخدمت لفظ سيكوبوليتيكا فى وصف أعراض الاضطرابات النفسية وباثولوجيات الإصابات السيكياترية التى أفرزتها حرب الخليج الثانية نتيجة غزو العراق للكويت وما ترتب على ذلك من مضاعفات مدمرة للعقل العربى أكثر من تدميرها للبيئة على المستوى الإقليمى أولاً فالمستوى العالمى عموماً- خصوصاً وأن حرب الخليج قد تزامنت مع تفكك الاتحاد السوفيتى وانهيار النظام العالمى القائم على توازن القوتين الأعظم والحرب الباردة بين الكتلتين الشرقية والغربية .. تمهيداً لقيام نظام عالمى جديد يعجل بتفككات بازوكية وتكتلات صادية للدول والاتجادات فيما تتكون منه من أعراق وعصبيات طائفية وقبلية لم تعد تستطيع العيش تحت سقف واحد ، فتفجرت الصراعات الدموية والإبادة الجماعية والتطهير العرقى والدينى والتهجير القسرى واغتصاب وتلويث الأرحام .. وغلبت التجمعات الإقتصادية باتفاقات الأسواق المشتركة والتجارة الحرة والحد من التسلح النووى وسياسة العصا والجزرة فى صنع السلام المنشود بالحظر أو المساعدات الإقتصادية للقضاء على الصراعات الدامية فى شتى بؤر العالم الملتهبة .. مقابل دعوى انتهاك حقوق الإنسان فى محاربة التطرف والإرهاب فى مواجهة السلطات هنا وهناك حسب المصالح والأهواء .. ويكفى أن نذكر عناوين فقرات هذه الآثار السيكوبوليتيكية المباشرة لغزو الكويت فى القسم الأول من الدراسة: ١- ذهول الصدمة وعصف العقل العربى ، ٢- الإفاقة من الصدمة الراجفة وعودة الوعى ، ٣- من الفصام عقب الانفعالى إلى الفصام شبه الهذائى ، ٤- من تعايش الغرباء إلى نبذ الأقربين والتعلق بالأغراب ، ٥- الانغلاق على العرب الوافدين بدعوى الاعتماد على النفس ؛ ٦- وفى الغرب: جنون ترحيل العرب وحرب إبادة المسلمين(١٢).

أما الآثار غير المباشرة أو فى المدى البعيد التى خلفتها حرب الخليج الثانية فلم تقفل ملفات دراستها بعد لأن سيناريوهات إخراجها على المسرح الدولى لم تتم فصولها (مثل مأساة البوسنة والهرسك ، أفغانستان ، الصومال- حتى بوروندى ورواندا ، وشمال وجنوب اليمن..) ، فلم أستطع أن أنتهى إلا من أربع آفات سيكوبوليتيكية لم تزل تتفاعل مضاعفاتها فى الخليج والشرق الأوسط- وهى: ٧- التسميم المناخى بالإشعاع، والتلويث الأخلاقى للبيئة يصيبان الجميع بسندروم

الصحراء، ٨- ولعنة العراق تورث كافة الأطراف مشاعر الذنب والندم والانتقام، ٩- عقدة صدام: المحصن ضد مؤامرات الاغتيال الشعبية واستراتيجيات الحربين العسكرية والنفسية، ١٠- ما بين إيران جيت وعراق جيت وبالعكس: لا بديل لصدام ونظام حكمه الأليم. وواضح أنها تحليل لدوافع سلوكيات وسمات شخصيات الطاغية المعتدى الذى لا خلاص لأعدائه منه شعوباً وحكومات مساندة له أو مجاهدة ضده أو متناورة معه حتى يستوفى عقابه أو يتوافر بديل يكون خيراً منه - فى ظل متغيرات لا تكف عن التبدل والتحول لصالحه أو ضده فى مواجهة التحالف الدولى المتربص به.

والواقع أنه ما كان لهذين الاتجاهين المتداخلين منذ الستينات إلى دراسة السلوك الإنسانى المتماثل فى مجتمعين أو أكثر للمقارنة بينهما وإستخلاص أوجه الشبه والاختلاف فيهما (بعلم النفس الحضارى المقارن)، أو دراسة سلوك الجماعات البدائية بإستخدام المنهج الأنثروبولوجى المعتمد أساساً على الملاحظة الدقيقة والمعايشة الكافية للوصول إلى مفردات الواقع الذى يتحكم فى السلوك - من قيم ودوافع واتجاهات وأنماط تصرفات وعلاقات تفاعلية بين الأفراد وأساليب اتخاذ القرار والسلوك القيادى ومراكز التأثير...(بالسيكوانثروبولوجيا أو علم النفس الانثروبولوجى)[١٣]... ما كان لهذين الاتجاهين أن يتقدما لو لم يتبلور علم النفس الاجتماعى نتيجة تصالح علمى الفرد والمجتمع: النفس والاجتماع ، فيتطور منهج دراسة كل منهما بالصعود أو النزول درجة (من الفرد إلى الجماعة فى الأول، ومن العقل الجمعى للمجتمع العام إلى السلوك الاجتماعى الاقليمى أو المحلى **community** فى الثانى - بحيث تقاربت مستويات دراسة سيكولوجية جماعات الأفراد **groups** ودراسة أنثروبولوجية المجموعات (فى البيئات الايكولوجية والقيم الثقافية التى تحكم استقرارها ودوامها)، ثم بترادف الاجتماع والأنثروبولوجيا (كما رأينا) تقدمت الدراسة التطبيقية للمجموعات فى بيئاتها الطبيعية، كما بانتهاء علم النفس الاجتماعى إلى دينامية الجماعات تيسرت الملاحظة والتجربة على سلوكيات وتفاعلات الأفراد والجماعات.

وتفصيل ذلك أنه- بينما لم يكن من الصعب على علماء النفس التسليم لعلماء الاجتماع بأن الفرد ليس جزيرة منعزلة بل هو عضو جماعة يتأثر بها ويؤثر فيها- فالجماعة هى وحدة الدراسة فى علم النفس الاجتماعى المشترك-لم يكن من السهل

علـى علـماء الاجتماع التخلى عن شرط كبر حجم المجتمع وعن التنظيم والاستدامة لـلوحدات المكـبرة والسلطات العامة التى تعلو على جماعات الأفراد كوحدات صغرى وعناصر يتكون منها الكل المركب. حقاً لقد تم القبول بمبدأ كون الجماعة الخلية الأولى للمجـتمع وليـس الفـرد؛ غير أن العقل الجمعى الذى لا يمكن دراسته على مستوى المجتمع الكبير كرمز أو علم يلتف حوله الأفراد ويفخرون بالانتماء إليه والاعتزاز به سواء طوعاً أو كرهاً... وإنما الذى يمكن دراسته ما أسموه الحقائق الإجتماعية التى هى تـوع السـلوك-تفكيراً كان أو شعوراً أو فعلاً – الذى يخضع للملاحظة من حيث طبيعـته الجمعيـة كظاهرة سوية أو مرضية، فله تأثيره القهرى على عقل الفرد بما ينطوى عليه (هذا السلوك) من قواعد ونظم وعمليات وأوضاع ومعتقدات... هى ذات قيمـة تعـلو على مستوى الفرد. غير أن الظواهر الإجتماعية التى أصر ديركايم على دراستها كما تدرس الأشياء تنشأ تلقائياً فلا دخل لإرادة الأفراد فى تكوينها، وهى ليست تجمعيـاً أو تـراكم سـلوكيات أى فرد منهم على حدة ، بل النتيجة الطبيعية لتجمعهم وتفاعل عقولهم واحتكاك رغباتهم وتبادل أفكارهم. فالكل ليس مشابهاً لمجموع أجزائه ، وإذا كانت محاولة ديركايم أن يلغى عقل الفرد كحقيقة وكعامل فى السلوك الاجتماعى قـد أدت به إلى جعل الإنسان مزدوج العقل أى إلى وجود كائنين مستقلين داخل عقل الفـرد- أحدهما (الذى وصفه بالأعلى أو الأسمى ، المقدس ، المهيمن ، السماوى أو الإلـهى... مقابل الأرضى النجس أو المدنس- فإنه بهذا زاد موضوع ومنهج دراسة عـلم الاجـتماع صعوبة وتعقيداً.. كما قال أشهر نقاد وضعيته الإجتماعية منذ مطلع القـرن: جيلكه (١٩١٥)[١٤] ، وكارف (١٩٣٢) ، وبوجاردس (١٩٤٠) ، وجوردون أولـبورت (١٩٥٤)... مـن مـؤرخى الفكر الاجتماعى الحديث منذ بداياته الأوربية[١٥،١٦،١٧].

مدرج العلوم الوضعية لأوجيست كونت (نقلاً عن دى جرانج ١٩٣٠)

وحيث أن كونت وهو يتراجع عن أولى محاولات فلسفته الوضعية أن يقضى على علم النفس ليرثه علماً وظائف الأعضاء والاجتماع (١٨٣٠) قد اعترف بهذا العلم تالياً للاجتماع وأسماه تارة الأنثروبولوجيا وتارة الأخلاق – نظراً لما هداه إليه تفكيره من أن دراسة الظواهر العقلية الفردية ينبغى أن نبحث عنها فى التطور الاجتماعى للإنسان بدلاً من التشريح الوظيفى لعقل الفرد، وعبر عنه فى كتاب السياسة الوضعية (١٨٥٢)[١٨] فإنه بذلك يكون قد اعترف بثلاثة علوم نفس بعد أن لم يكن يعترف منها بواحد: الأول عضوى فيزيولوجى يعالج النشاط الحسى الحركى، والثانى يتناول التاريخ الحضارى والتطورى كصورة مكبرة لفهم فاعلية العقل الانسانى فى صورته الفردية المصغرة (مع الاهتمام دائما بأثر المجتمع فى الفرد – كأن لا دخل للفرد فى إحداث الظواهر الإجتماعية)، وعلم نفس فردى هو مزيج تفاعل الكائنين العضوى والاجتماعى لكن فى استقلال عنهما– ما دام أن أحدهما أو الآخر لا يكفى لتفسير الظواهر العقلية الخالصة، أو يصلح لمقارنة الظواهر الفردية بعيداً عن التأثير بالبيولوجيا أو الإجتماع... فقد كانت ردود الفعل المباشرة نشوء علم نفس فيزيولوجى تجريبى على يد فونت وتابعيه، وعلم نفس هورمى أو غائى على يد مكدوجل– لصالح تقدم علم النفس لمزيد من الوضعية. لكن محاولة جوستاف لوبون إنشاء علم نفس دراسة سيكولوجية الشعوب لتأكيد "روح الجماعات" ؛ متأثراً بكتابات تارد عن فاعلية الإيحاء والتقليد أو المحاكاة (التى كانت سائدة فى ذلك الحين) كان نكسة على طريق تقدم علم الإجتماع الوضعى الذى جاهد من أجله كونت وديركايم.

فمع أن لوبون يبرز فى مقدمة كتابه أن منهجه سيكون علمياً وضعياً يستخلص بالملاحظة والوصف القانون العلمى للانتظام الذى تتوالى به الظواهر واحدة بعد أخرى كما يريد كونت، وأن الذى أثار اهتمامه بسيكولوجية الجماعات ادراكه ما للجماعات المنظمة من أثر كبير فى حياة الأمم- خصوصاً فى الوقت الحاضر- وتغير الحياة الاجتماعية من الاعتماد على تفكير الفرد إلى الاعتماد على تفكير الجماعات الصغيرة المنظمة (كالمجالس النيابية والهيئات القضائية ، ومجالس الإدارات...) ؛ فقد اندفع إلى دراسة (السلوك الجمعى) للحشود أو الجموع crowds التى تتجمهر بصورة عفوية بلا دوام أو ثبات ، لكن تسودها فاعليتا الإيحاء والتقليد بحيث يؤثر الجمع الحاشد فى الفرد ليصبح بداخلها مختلفاً تماماً عما يكون عليه وهو منفرد بنفسه. ولم يعترف بدور للفرد فى الجمهرة إلا للذى يصبح قائداً لها أو زعيماً. والجماعة التى يدرسها لويون هكذا يعرفها بأنها "جماعة نفسية منظمة ، تتألف من عناصر مختلفة من الأفراد ، لا يشترط فيها الحجم أو الإجتماع فى مكان واحد، تتحد اتحادا مؤقتاً لا دائماً وتتميز بوحدة الهدف مع اختفاء شعور الأفراد بمميزات ذواتهم". ولهذه الجموع الحاشدة ست عشرة صفة مميزة أبرزها: الاندفاع للعمل دون تفكير فى العواقب ، تتقلب بسرعة من حال شعورية إلى أخرى مضادة (كالقيام بالتكريم بدل الرغبة فى الانتقام) ، والأخبار المبالغ فيها ، تطرف الحب والكره والاعجاب والسخط والسيطرة، والخضوع... بلا توسط أو اعتدال ، انخفاض المستوى العقلى للصور الذهنية والعمليات الفكرية والميل الى التعصب للرأى...[١٩].

ومع أن هذه المحاولة التى هى أقرب إلى خلق اجتماع نفسى لا علم نفس اجتماعى لا تزال تؤكد سيادة المجتمع على الفرد؛ فهى قد أفسحت مجالاً لدور بعض الأفراد فى قيادة الجماهير حين يطفو بهم إلى السطح إيمانهم بفكرة يتحمسون لها ويوحون إلى الأتباع بها- وإن يكن فى ضعف قدرة على النقد والتحليل لكل جوانب الموقف (إزاء تفوق القدرة على المبادأة والتنفيذ) ومرض شخصياتهم العقلى والنفسى الذى يدفعون به (الجماعة) إلى القيام بالعمل أو تبنى المبادئ والمعتقدات بتكرار التأكيد والايحاء. غير أن هذه المحاولة- بإسقاطها مبدأى التنظيم والاستدامة لحساب العفوية والتلقائية فى النشأة وعدم الثبات والاستقرار على المبدأ أو الهدف من التجمع فى

المكـــان أو الزمان ، إلى جانب تفسيرها الفردى للتفاعل الاجتماعى بالايحاء التنويمى مـــن جـــانب القائد والانقياد القطيعى بالتقليد والمحاكاة والعدوى الانفعالية والتعصب الأعمى... وعموماً انتهاء العقل الجمعى إلى أن يصير أضعف من عقل أى فرد عضو بـــالجمع (حـــتى القـــائد الذى رأينا وصف عقله العاجز وشخصيته المريضة)... هذه المحاولـــة بـــاءت بالفشل فى خلق علم نفس اجتماعى، ويُدرس الآن هذا الصنف من الظواهـــر فى بـــاب تفاعلات "السلوك الجمعى" لجماهير الشغب والتظاهرات التخريبية والغوغائيات الإباحية وجماعات الخلاعة والمجون والبدع والتقاليع ومروجى الشائعات وضـــحايا الحـــرب النفســـية والهستيريا الجماعية... التى لا ترقى حتى إلى مستوى الجماهير المنظمة التى تأتلف حول اهتمامات قضايا مشتركة فى السياسة أو الإقتصاد أو الرياضة أو الفن ، أو جماهير اتصالات الرأى العام الذى يفيد استطلاعه وقياسه فى توجيـــه اهـــتمام المسئولين نحو تلبية حاجات جماعات الضغط وحل مشاكل جماعات المطالب الفئوية والمصالح الخاصة[٢٠].

ولـــم يـــتحقق لعـــلم الاجتماع أن يستقر على موضوع "المجموع من الناس" **community** كوحدة دراسة مكبرة ذات ديمومة واستمرار وذات تنظيم وطاقة عمل ومحافظة على البقاء بانجاب أفراد الأجيال المتعاقبة وتدريبها على شغل المراكز وأداء أدوار الكـــبار خـــلفاً لهـــم فى المـــنظمات والمؤسســـات... مقابل دراسة علم النفس الاجتماعى للجماعات الصغيرة **group** التى هى جزء المجموع البشرى المحدود عدد الأفـــراد- طبيعية كانت أم مرجعية، أولية أو ثانوية... كجماعات الأسرة ورفاق اللعب والدراســـة والعمـــل والعـــبادة والترويح ، التى بين أفرادها غالباً علاقات مواجهة ، تجمعهـــا المودة والتعاطف ، وتحكمها العادات والتقاليد... فلا يمتد بقاؤها لأطول من عمر أفرادها، كما لا تنشأ عن اجتماعها الموقوت هذا قواعد ضبط للسلوك أو قوانين امتـــثال أو انحراف عن القيم والمعايير... لم يتحقق الاستقرار على دراسة المجموعة المحـــلية أو الاقـــليمية أو الايكولوجيـــة إلا بحســـم الـــتفرقة بيـــن مفهوم الجماعة **Gemeinschaft** والمجموعة **Gesellschaft** الذى أشار إليه سوروكين فى تقديمه لترجمة لوميس لدراسة المجموع والمجتمع لفرديناند تونيز **F-Toennies** (١٩٥٧) بقوله[٢١]: "إن التنظيم الاجتماعى للجماعة- نظراً لقيامه على توافق إرادات أفرادها- يســـتقر على الانسجام والتجانس ، كما ينمو ويترقى بطرق شعبية متبعة **folkways**

بالعـادات والدين والتقاليد ، بينما التنظيم الاجتماعى للمجموعات- نظراً لقيامه على اتحـاد إرادات منطقية- يستقر على أوضاع واتفاقات ، يحميه تشريع قانونى ، ويجد تـبريره فى الـرأى العـام...»[٢١]- مما قبل به كافة علماء الإجتماع المحدثين منذ ديركايم: كولى ، زدفيلد ، بيكر ، سوروكين ، فيبر ، تالكوت بارسنز... كما تأثر به من علماء النفس فونت واسبنسر...

هـنا أخيراً وجد علماء الاجتماع ضالتهم المنشودة فى الأنثروبولوجيا- فى مجـتمعات القبائل البدائية المنعزلة، أحياء المدن الشعبية الفقيرة، المجتمعات الريفية العاميـة غير المتعلمة أو المتحضرة... تلك التى نجح علم الأنثروبولوجيا الثقافية فى تطـبيق المناهج الوصفية المسحية والإحصائية فى تشخيص مشكلات تخلفها وإيجاد حـلول تنميـتها والنهوض بها. ولقد استخدموا فى تحليل هذه التجمعات المحلية أو الإقـليمية أول الأمر قطبى المتصل أو المستمر فى تنظيم العلاقات الإجتماعية الداخلية لـلمجموعات الـذى طـرفاه الـبدائى العامى primitive folk والحضرى الحديث urban modern: جمـاعى- تنظيمى ، ريفى- حضرى ، أولى- ثانوى ، شعبى- متمدين ، روحى- دنيوى... إلى جانب وصف التجمع بأنه: أسرى ، تعاقدى ، طائفى ، رابطى associational... وساد ذلك الاتجاه المبشر لعلم الاجتماع بالتقدم فى كتابات عـلماء الاجـتماع الذين أشرنا إليهم- بناء على جداول تفرقة معايير تقييم جماعات العمل البيروقراطية فى المجتمع الصناعى كمنظمات وجماعات الحياة البدائية الرعوية والـزراعية ، مـن حيـث الخصوصـية أو العمومية، العاطفية أو الحياد الوجدانى ، الامـتزاج أو التمايز الوظيفى ، العائلية أم التعاقدية ، التقاليدية أم العقلانية ، التحقق والانجـاز مقـابل مجرد أداء الدور ، القداسة الروحية أم المادية الدنيوية...[٢٢] ولا تخـفى عـلى عـلماء الاجـتماع مخـاوف الأنـثروبولوجيين أنفسهم من أن دراسة المجموعـات البشـرية الكـبيرة تحمل فى طياتها إمكان الخطأ وتضارب النتائج بين الباحثين للمجتمع الواحد – تصديقاً لما ذكره ردفيلد عن دراسة قام بها فى شبابه لقرية تبوتسـلان فى ولاية مكسيكو ، وعاد فدرسها بعد سبع عشرة سنة أوسكار لويز من جامعـة إلينوى- حيث خرج كل منهما بانطباعات متناقضة سجل فيها الأول الانسجام

والحياة الرغدة الهانئة ، والثانى الحياة المثقلة بالمعاناة ، الممزقة من التفكك وصراع الأهواء.

أما فى المعسكر الآخر- على صعيد علم النفس- فسرعان ما تبلور علم النفس الاجتماعى ليظهر أول كتابين بهذا الاسم سنة ١٩٠٨ أحدهما لعالم نفس (مكدوجل) والآخر لعالم إجتماع (روس) ثم تتوالى بعد ذلك كتابات إلوود وبوجاردس وبراون... من أصحاب كلا العلمين الذين هم شركاء فى العلم الجديد بحق النصف، فتضاعف عدد المؤلفات فيه- خصوصاً فى أعقاب الحربين العالميتين حيث تمس الحاجة اليه أكثر-ليصل إلى ٥٢ مؤلفاً فيما بين ١٩٠٨ ، ١٩٥٢ فى قائمة أولبورت (بالمرجع المشار إليه آنفاً ص ص٤٠- ٤٩/٥٠)... حيث جاء التعريف بالعلم الجديد صراحة أنه "الفرع من فروع علم النفس الذى يتناول دراسة الفرد فى إطار المجتمع ، الدراسة العلمية لعمليات الإنسان العقلية منظوراً إليه ككائن اجتماعى ، وكان التوكيد على أن مهمة اصحاب علم النفس الاجتماعى "محاولة فهم وتفسير كيف أن تفكير الأفراد ووجدانهم وسلوكهم تتأثر بالوجود الفعلى أو الخيالى أو الضمنى لكائنات إنسانية أخرى". وبتوضيح أكثر لأهمية موضوع هذا العلم جاء تعريفه أنه "الدراسة العلمية المنظمة لخبرة الأفراد وسلوكهم من حيث هى استجابة لمواقف التنبيه الإجتماعى".

حيث الجمع بين تطور موضوع علم النفس من دراسة الخبرة الشعورية إلى السلوك الظاهر ، واجتماعية التنبيه الذى يستجيب له الفرد بوجود الآخرين من الناس من جهة والمحصلات الثقافية المادية والروحية من جهة أخرى - كتفاعل بين الفرد والجماعة. فكانت أهم تعريفات علم النفس الاجتماعى التى عددها كنتور ١- دراسة ظاهرة التجمع والتجمهر، ٢- دراسة الحياة العقلية الجماعية، ٣- دراسة القوى والمؤثرات الاجتماعية، ٤- دراسة سلوك الفرد فى استجابته لسلوك فرد أخر ٥- دراسة السلوك الفردى داخل اطار الجماعة، ٦- دراسة طرق اكتساب الصفة الاجتماعية- مما نسميه "التنشئة الاجتماعية"(٢٣).

ولأغراض عملية سياسية وإدارية تنموية كالتى انتهت بعلم الاجتماع إلى أن يصبح أنثروبولوجيا، تطور علم النفس الاجتماعى أخر الأربعينات منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية إلى أن يصبح "دينامية جماعات" تهتم بالأيديولوجية السياسية المتصلة

بالطرق التى ينبغى أن يتم بها تنظيم الجماعات وإدارتها ، على أساس المعرفة بطبيعة الجماعات وخصائصها ، والعلم بقوانين نموها ونشاطها ، وما بها من علاقات داخلية بين أفرادها وخارجية بين الجماعات المناظرة لها، التى تعلوها أو تندرج تحتها بحسب الصغر أو الكبر الذى يوجبه التدرج فى التنظيم. فالدينامية معناها القوة أو الحركة والفاعلية ، ودراستها وظيفياً بصرف النظر عن التراكيب مطلوبة فى مجالات إدارة المنظمات الاقتصادية والمؤسسات الاجتماعية والمصالح الحكومية التى يناط بها الخدمة العامة المدنية، وتربية المهارات القيادية وتنمية المشاركة والتعاون فى العمل الجماعى وخدمة الفرد والجماعة والعلاج النفسى الجماعى... أما مناهج البحث فى دينامية الجماعات التى يعمل بها أصحاب العلوم الاجتماعية (برغبة صادقة فى أن يحطموا الفصل التقليدى بين أقسام ومواد الدراسات الاجتماعية فى الكليات والمعاهد، فيتحرروا من التخصصات الضيقة المقفلة التى تفرق بينهم، ومن القيود الإدارية و المالية التى تعوق تقدمهم...) فهى أولاً: التجارب على سلوك الفرد داخل الجماعة، ثانياً: الملاحظة المنظمة للتفاعل الاجتماعى، ثالثاً: القياس الاجتماعى- على غرار أقدم تصميمات قياس العلاقات الاجتماعية لمورينو (١٩٣٤).

ولكون الدينامية لا تعنى فقط التحرك والتفاعل – بل أيضاً التغير – كما لاحظ سوروكين الذى قام بأكبر دراسة شاملة لدينامية المجتمع الثقافية[٢٤]- تغير القوى الفاعلة فى الجماعة نتيجة التركيب والوظيفة، أى القوى النفسية الاجتماعية المؤثرة فى الجماعات وهى تعمل عملها فى تحقيق الجماعات لوظائفها ، تميز علم دينامية الجماعات عن العلوم الإجتماعية الأخرى- التى توسط منظومتها كما يبين الرسم- بالاهتمام بما بين الظواهر من اعتمادية متبادلة أو تواقف **interdependance** يؤدى تحليلها لنظريات تقيم علاقات شرعية بين ظواهر كمقاومة التغير ، والضغوط الإجتماعية ، ومؤثرات القوة والقهر ، والتماسك أو التلاحم ، الجذب والنفور ، التوازن أو الاختلال... حيث بالتنقل بين البحث الميدانى للكشف عن الحقائق واستخلاص النظريات ثم العودة بهذه الحقائق والنظريات الى العمل أو التطبيق يؤكد العلم الجديد على ميزته الثانية: البحث التجريبى الذى له دلالته النظرية[٢٥]. وبالنظر لميزة اندماج العلوم فى إنشائه ، واشتراك علماء النفس والإجتماع والاقتصاد والسياسة (أحزاباً

وهيئات تشريعية ونقابات مهنية وجمعيات خيرية...) فى بحوثه، تميز علم دينامية الجماعات بقابلية أبحاثه للتطبيق فى العمل الاجتماعى- الذى كان حلماً يداعب كورث ليفن[٢٦] (أول متحدث عن دينامية الجماعات أول الأربعينيات) وهو يحاول حل مشاكل الأقليات ببحوث العمل أو الفعالية action research بعد أن لم تفلح جهود الهيئات والجمعيات المدنية ونواياها الحسنة فى القضاء على مثل تلك المشكلات- ثم تحليلاته النفسية الاجتماعية أيضاً لآثار التمييز العنصرى ، وطرق مواجهة القمع، والصراع فى الصناعة والزواج وأثناء الحروب... لإحداث التغيير فى الظروف الاجتماعية بخلق البصيرة النافذة لتلك العمليات الاجتماعية، مما جعل زميله ليبيت Lippitt يصفه بحق بالمواطن العلمى scientific citizen العميق الحساسية بالعالم الذى يعيش فيه ، المرهف الشعور بالآلام الشخصية التى يسببها القمع والتحايل والاضطهاد ، فكرس جهده لحل تلك الصراعات.

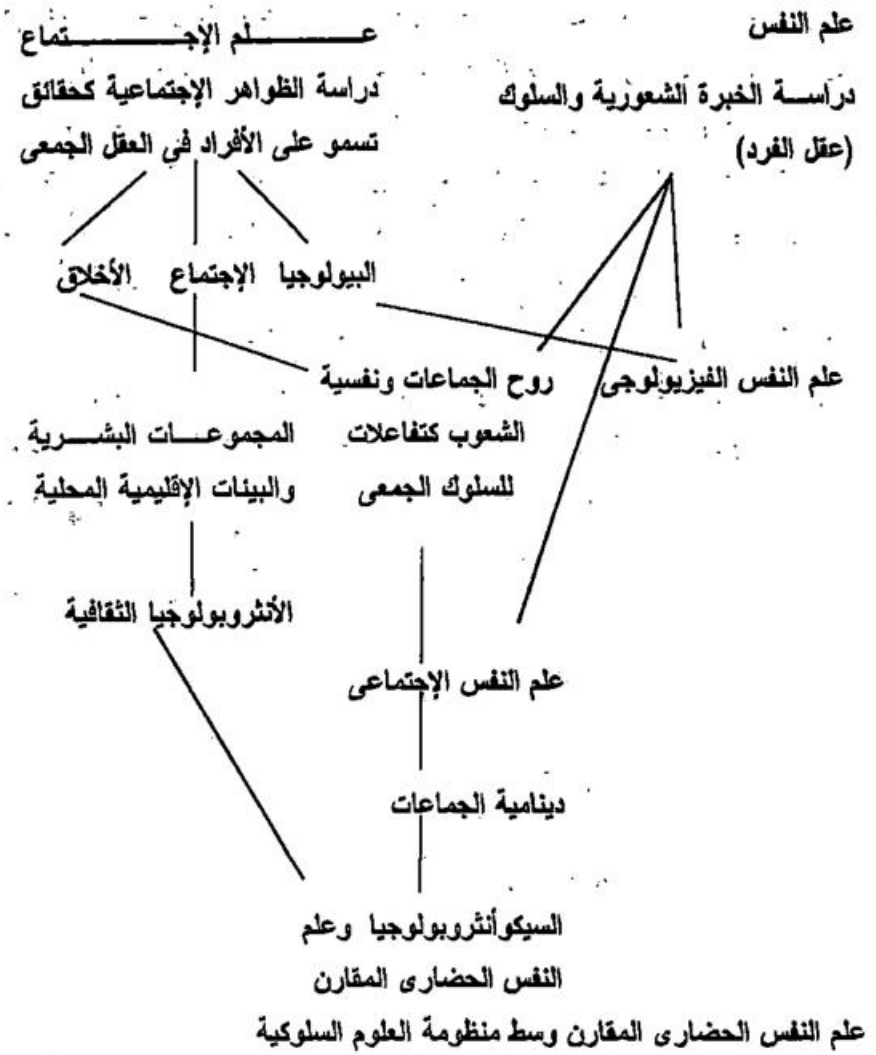
علم النفس
دراسة الخبرة الشعورية والسلوك
(عقل الفرد)
علم الإجتماع
دراسة الظواهر الإجتماعية كحقائق
تسمو على الأفراد فى العقل الجمعى
البيولوجيا
الإجتماع
الأخلاق
علم النفس الفيزيولوجى
روح الجماعات ونفسية
الشعوب كتفاعلات
للسلوك الجمعى
المجموعات البشرية
والبيئات الإقليمية المحلية
الأنثروبولوجيا الثقافية
علم النفس الإجتماعى
دينامية الجماعات
السيكوأنثروبولوجيا وعلم
النفس الحضارى المقارن
علم النفس الحضارى المقارن وسط منظومة العلوم السلوكية

مراجـــع وهوامش:

١. كمـال دسـوقى ، ديـنامية الجماعة فى الإجتماع وعلم النفس الإجتماعى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ ، ص ص ٤٩-٨٥.

٢. كمال دسوقى ، ذخيرة علوم النفس ، توزيع الأهرام والدار الدولية، ج١ ، ١٩٨٩ ، ص ١٠٥.

٣. أحمد أبو زيد ، الأنثروبولوجيا الإجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، ط٣ ، ١٩٧٢.

٤. كمال دسوقى ، الإجتماع ودراسة المجتمع ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٠ ، ط٢ ، ١٩٧٦.

٥. كمال دسوقى ، ذخيرة علوم النفس ، مرجع سابق ، ص ٣٣٢.

٦. Gitter, Joseph, Social Dynamics, McGraw Hill, N.Y., 1952, p. 104.

٧. Loomis, Charles, Social Systems, Van Nostrand, 1960, p. 116

٨. منشور بحوليات كلية آداب جامعة عين شمس ، مجلد ١١ ، ١٩٦٨ ، ص ص ٢٠٧-٢٥٨ ، ثم فى كتاب "دراسات فى المجتمع السودانى ، مطبوعات جامعة القاهرة ، بالخرطوم ، ١٩٧٣ ، ص ص ١١-٧٢.

٩. نشر بمجلة أم درمان الإسلامية ، العدد الأول ، ١٩٦٨ ، ص ص ٦١-١١٩ ، والملخص الإنجليزى ص ص ٣١٨-٣٢٢ ، وأعيد نشره بكتاب: دراسات فى المجتمع السودانى ، ١٩٧٣ ، ص ص ٧٣-١٣٨.

١٠. K. Dessougui, Cultural Conflicts Within Nuba Peoples, Monograph on a Political Anthropology of Central Sudan, Bull. of Cairo University Khartoum, Vol. 111, 1972, pp. 1-32. وأعيد نشره بكتاب دراسات فى المجتمع السودانى ، ١٩٧٣ ، ص ص ١٥٩-١٩٠.

١١. Nadel, S.F., The Nuba, An Anthropolgical Study of the Hill Tribes in Kordofan, Oxford Univ. Press, 1947.

١٢. محاضرة تذكارية بالمؤتمر الثامن لعلم النفس فى مصر (٦-٩ يونيو ١٩٩٢) ، نشرت بالمجلة المصرية للدراسات النفسية ، العدد ٣ ، ديسمبر ، ١٩٩٢ ، ص ص ٢٣-٤٨.

١٣. مصرى حنورة، علم النفس الحضارى المقارن ، الفصل الأول ، ص ص ١٠-١١ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٩٤.

١٤. Gehlke, Emile Durkheims Contribution to soiological theory, columbia Univ. stud. Hist. Econ. & Pub. Law, New York, 1915.

١٥. Karpf, Fay Berger, American Social Psychol., Its Origin, Development and European Background, McGraw Hill, New York, 1932.

١٦. Bogardus, Emory S., Development of social Thought, 1st ed., Longmans, 1940.

١٧. Allport, Gordon W., The Historical Background of Modern Social Psychol., Chap. 1 in Lindzey, Gardner, ed., Handbook of Social Psychol., Addison Wesley, Cambr., Mass, 1954, 2 Vol.

١٨. شارل بلوندل ، مقدمة فى علم النفس الإجتماعى ، ترجمة الأستاذين محمود قاسم وإبراهيم سلامة ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، وقاسم والسيد بدوى ، فلسفة أوجيست كونت الوضعية ، تأليف ليفى بريل ، الأنجلو ، القاهرة ، ١٩٥٢

١٩. مصطفى سويف ، مقدمة لعلم النفس الإجتماعى ، الأنجلو المصرية ، ب.ت. ، ص ص ١٥٧-١٥٨.

٢٠. كمال دسوقى ، الإجتماع ودراسة المجتمع ، مرجع سابق ، الفصل الحادى عشر ، تفاعلات السلوك الجمعى.

٢١. Toennies, Frdinand, Fundamental Concepts of Sociology, tr. By Ch-Loomis, Amer. Book Co., N.Y., 1940.

٢٢. كمال دسوقى ، دينامية الجماعة فى الإجتماع وعلم النفس الإجتماعى، الأنجلو المصرية ، ١٩٦٩ ، صفحات ١٢٦ ، ١٢٩ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٨-٤٣٩ ، ٤٤١ -٤٤٢.

٢٣. فؤاد البهى السيد ، علم النفس الإجتماعى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٥ ، ص ١٢.

٢٤. Saunders, Irvin T., The Community, An Introduction to social system, Ronald Press, 1958, p. 126.

٢٥. Cartwright, D. and Zander Alvin (eds.) Group Dynamics, Research and Theory, 2nd ed., Row, Peterson & Co., Illinois & N. Y., 1960.

٢٦. Lewin, Kurt, Resolving Social Conflicts, Harper, N.Y., 1948.